

قلعة السلط التاريخية ومحيطها السكاني

درويش الكاشف*

تعدّ قلعة السلط من إحدى القلاع التاريخية والإستراتيجية في بلاد الشام، وكانت معلماً أثرياً بارزاً للمدينة نظراً لموقعها وأهميتها، حيث تقع على قمة أحد جبال السلط الشامخة العريقة وهو جبل عال كان يُسمى بـ (رأس الأمير) ويرتفع عن مستوى سطح البحر حوالي (٨٤٠) متراً، ويقع شمال شرق المدينة. ويحف به واديان هما وادي الأكراد ووادي الحلبي:



والعثمانية حتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر.

تاريخ بناء القلعة

يُجمع المؤرّخون على أنه يعود بناؤها إلى العهد الأيوبي، وأشرف على بنائها أمير عجلون إيبك بن عبد الله العلاني سنة 616هـ / 1220م وكان ذلك أيام الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي. إلا أن بعض علماء الآثار يرجعون بناء هذه القلعة إلى عصور وعهود سابقة كالكنعانيين والعمونيين وغيرها. ويعود سبب بنائها إلى حادثة وقعت سنة 594هـ / 1198م ومفادها أن قوماً يُقال لهم (بنو الرحمان) كانوا يقيمون في خربة (كفر يهودا) وربما تكون (كفرهودا) القريبة من مدينة السلط قد انتهزوا فرصة مرور ركب من الجوّاري فأغاروا عليهم وسبوهنّ وكنّ من جواري الملك الأيوبي المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي والذي قام بنفسه واستأصلهم وبعدها أمر ببناء القلعة.

الأكراد نسبة للعائلات الكردية التي سكنت فيه في العهدين الأيوبي والمملوكي. والحلبي نسبة لركب الحجّ الشامي والحلبي الذي نزل فيه. وتتربّع على أرض مساحتها حوالي (١٦) دونماً، وكانت أرضها قبل بناء القلعة مكسوة بغابات كثيفة. وهي اليوم أملاك وقفية. وتشرف القلعة على المرتفعات والهضاب في مدينة السلط وجوارها؛ لذا تم اختيار هذا الموقع لبناء القلعة، فضلاً عما كانت تتميز به مدينة السلط في تلك الحقبة من أهمية عسكرية واستراتيجية. وهي تُشبه قلعة عجلون من حيث الموقع الحصين، وأن كليهما أقيمت نتيجة لحالات متقاربة، كما تشبهها، أيضاً، في العناصر المعمارية والنقوش التاريخية والمخطط الهندسي. وآثار قلعة السلط ما تزال شامخة رغم التحديات وعوامل الهدم والتدمير التي تعرّضت لها عبر تاريخها. وقد استمر بقاء القلعة طوال العهود الأيوبية والمملوكية

*.باحث اردني

الأهداف الرئيسية لبناء القلعة

(يُقال إن خيار اسم لرجل يعود بنسبه إلى بني حمدان من أعقاب الدولة الحمدانية، وكان قد التجأ مع أخ له إلى القلعة بسبب دم ارتكبه)
 وفي جوار القلعة أقيمت مقبرة هي من أقدم المقابر الإسلامية في المدينة. كما كانت تُقام في القلعة مضافات لعشائر السلط في بيوت الشعر لحين تهدمت القلعة، ثم قامت هذه العشائر بإنشاء مضافات خاصة بها في أماكن تجمعها.

أما الأهداف الرئيسية لبنائها فهي منع وصول الفرنجة إلى المرتفعات الأخرى في المنطقة وتأمين الاتصال مع قلعة عجلون لحماية الطرق المؤدية إلى الشام ومصر والحجاز وبيت المقدس وتأمينها، وطريق الحج بخاصة.

وصف القلعة

مراحل إعمار القلعة

- 1- أعاد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في العام 660 هـ / 1261م بناء القلعة بعد أن دمرها التتار في العام 1260م.
 - 2- دمر إبراهيم باشا بن محمد علي باشا (حاكم مصر ومن أصل الباني) القلعة في 1256هـ / 1840م عندما ثار عليه قاسم الأحمد الذي فر إلى السلط ثم إلى الكرك ولحق به إبراهيم باشا وتم القضاء على ثورته.
 - 3- أعاد بناء القلعة حاكم عكا ظاهر العمر بعد أن أهملت فترة طويلة.
 - 4- أعيد ترميم القلعة في العهد العثماني في العام 1307هـ / 1889م وأصبحت في القرن التاسع عشر معلماً رئيساً بارزاً في مدينة السلط واستقرت فيها حامية تركية وأعيد الأمن والاستقرار إليها، واستمر بقاؤها طيلة العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية حتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر حيث قام إبراهيم باشا بغزو بلاد الشام والقضاء على ثورة قاسم الأحمد في نابلس بعد أن نسف القلعة بالديناميت في العام 1256هـ / 1840م ولم يبق منها سوى بقايا برج خيار وجزء من جدار، وتناثرت حجارتها وأخذت في بناء المساكن في جوارها.
- وقد كانت قلعة السلط على مر العصور والأزمان، بأسوارها وأبراجها وخذقتها، رغم الهدم والتدمير مقرراً حصيناً لكل من أقام فيها، وملاً آمناً لكل من التجأ إليها. وستبقى شاهدة على عظمة هذه المدينة وعراقتها.

كانت القلعة محاطة بسور مبني من الحجارة الضخمة، وعلى هذا السور أربعة أبراج للسيطرة والمراقبة ولم يبق منها اليوم سوى بقايا برج واحد، وكان يُحيط بالقلعة خندق عريض يتراوح عرضه ما بين 20 - 40 متراً وارتفاعه في بعض المواقع 15 متراً، وكان فوق هذا الخندق جسر خشبي يصل القلعة بالخارج ويُرفع ليلاً عند الخطر. وكان للقلعة ممر (نفق) تحت الأرض يمتد من القلعة نفسها إلى وسط مدينة السلط (تحت مبنى مسجد السلط الكبير)، حيث كان هذا النفق يُستخدم وقت الحصار لخروج أو دخول الجند منه أو التزود بالماء الذي يتدفق إلى اليوم عبر الصخور من تحت بناء المسجد الذي كانت تستقي منه مدينة السلط ومصدر نبع الماء عين كانت تُسمى (عين الخندق) وكان يسيل منها فرع إلى القلعة. ويُذكر أن أحد الرحالة الأجانب قد شاهد هذا النفق في العام 1812م أثناء مروره في السلط وهو الآن مطمور تحت الأرض واختفى سنة 1938. (وتعود تسمية حي الخندق في السلط إلى خندق القلعة) وفي جوار القلعة مقبرة من أقدم المقابر الإسلامية في المدينة.

أبراج القلعة

- كانت تُقام على سور القلعة أربعة أبراج مربعة الشكل، وكانت تُسمى بأسماء العشائر المقيمة فيها وهي:
- 1- برج الحاج نسبة إلى عشيرة القطيشات (وهي أول من أقامت في القلعة).
 - 2- برج أبو حمور نسبة إلى عشيرة الحمامرة.
 - 3- برج حسين الصبح نسبة إلى عشيرة الفواعير.
 - 4- برج خيار نسبة إلى عشيرة العواملة.

واليوم...

واليوم أُقيم على أنقاض القلعة في العام 1985م مسجد كبير يُطل على مدينة السلط تبرع ببنائه وتشييده على نفقته الخاصة المحسن الحاج حمدو الأنيس أبو الراغب، وهو من أهالي السلط. كما أقامت الحكومة التركية صرحاً للجندي المجهول على مقربة من المغارة التي تضم رفات الجنود الأتراك الذين قضوا أبان الحرب العالمية الأولى. وتقيم السفارة التركية بعمّان احتفالاً سنوياً لهذه المناسبة في موقع القلعة. وفي أعقاب حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام وتدمير القلعة بقي بعض جنود هذه الحملة واستقروا في مدينة السلط وانضموا إلى بعض عشائرها ومن هؤلاء: جد عائلة (أبو اليعقوب: العواملة) وأصلهم من مدينة طنطا في مصر، وجد عائلة (المصري: العواملة) وجد عائلة (المصري: الرمامنه) وهم من مصر أيضاً وكذلك جد (آل أبو الراغب) وأصله من مدينة حماة من بلاد الشام.

